الفصل الخامس

الموضوعية دليل المنهجية ـ ونتيجتها فى العلوم الاجتماعية

- **معنى الموضوعية**
  - موضوعية العلوم الاجتماعية
  - ما هو المقصود بالموضوعية ؟
- **ركائز الموضوعية**
  - الحيدة
  - الأمانة
  - الدقة
- **عناصر الموضوعية**
  - الظاهرة أو الموضوع المبحوث
  - الباحث الذى سيدرس المشكلة
  - المنهج المستخدم فى البحث
  - طبيعة المعرفة المتحصل عليها

الموضوعية دليل المنهجية ونتيجتها فى العلوم الاجتماعية

●

موضوعية العلوم الاجتماعية :

لعل الموضوعية .. سواء أكانت موضوعية .. فى العلم .. أو للعلم أو حتى كمجرد اصطلاح .. لعلها من أكثر الموضوعات اثارة للجدل ليس فقط بين فلاسفة العلم والمشتغلين به ، ولكنها كذلك حتى بين الناس العاديين أو الذين يربطهم بالعلم خيط رفيع من القراءة أو المتابعة .

●

ما هو المقصود بالموضوعية ؟ !

١ ـ هناك من يرى أن الموضوعية هى فى نهاية الامر غياب لكل عوامل التحيز ، وكف لتاثيرها .

أما كيف تكون **موضوعيا** فهذا معناه .. الا تتاثر بعواطفك وعرفك وقيمك وموقفك الاجتماعى (١) .

٢ - هناك من يعتقد أن الموضوعية بمفهومها العلمي ، أو التى يقصدها العلم انما هى موضوعية **الوقائع** للعلمية التى تظهر من خلال الأجهزة والمقاييس والموازين ، كما أن الموضوعية أيضا هى التى تظهر فى **المعمل** الكيميائى بعد التحليل والتركيب (٢) ٠

٣ - ومن العلماء من يرى أن الموضوعية تعنى الالتزام بالمنهج العلمى فى أية دراسة وذلك بالاستناد على الملاحظة الدقيقة والاستقراء علاوة على اجراء التجربة **المنضبطة** ، واتباع ذلك أو الاعتماد عليه يؤدى الى الموضوعية التى تجعل الدراسة بحق علمية (٣) ٠

٤ - وهناك من يرى أن التزام الموضوعية فى البحوث العلمية انما يعنى اقصاء الخبرة **الذاتية** لمعرفة الأشياء كما هى فى الواقع ، لأن العلم هو الذى يقوم بوصف الاشياء وتقرير حالتها فى صورتها **الواقعية** ، وتتجلى الموضوعية من خلال عرض موضوع واحد للدراسة من طرف مجموعة من العلماء ، وانتهائهم جميعا الى نفس النتائج ، وان حدث بينهم خلاف احتكموا الى الواقع لتكون التجربة هى **محك** الصواب أو الخطأ عندهم ، **ووظيفة** التجربة هنا ٠٠ هى اعادة التثبت من صحة النتائج بطريقة موضوعية خالصة (٤) ٠

٥ - هناك من يرى أن الموضوعية جهد ايجابى موصول يبذله الباحث، وينظر اليها - أى الى الموضوعية - من خلال ما لها من دلالات **متفاوتة** ومستويات متباينة ، وتتفاوت **دلالات الموضوعية** بين الدالة الاكسيولوجية « **القيمية** » والتى تعتبر الموضوعية بمقتضاها تجردا لكل حكم من أحكام القيمة ، وبين الدالة الابستمولوجية « **المعرفية** » التى تعنى بالصلة ما بين الذات العارفة والموضوع المعروف ، وبين الدالة السيكولوجية « النفسية » متى كانت الموضوعية تمحيصا لأثر العوامل النفسية فى تشكيل المعرفة ، وأخيرا الدالة **الثقافية** التى تشير الى الاتفاق أو التواضع حول المعايير

التدابير السائدة فى المناخ الفكرى عند بحث موضوع الدراسة بحيث تؤسس التعريفات والمفهومات وسائر الخطوات والادوات على طائفة من الاجراءات والتصورات التى اتفق المجتمع العلمى فى هذا الوقت أو ذاك على الالتزام بها لكى توفر شروط التحقيق والاثبات ٠

كان ذلك عن دلالات الموضوعية فى العلوم الانسانية ، أما عن مستوياتها . فتتمثل فى **مستويين** أولهما المستوى « الانطولوجى » والمستوى « الميتودولوجى » ، ويتصل المستوى الأول بالنظرية العلمية أو « ماذا ندرس » ، بينما يتصل المستوى الثانى بالمنهج المستخدم فى دراسة موضوع البحث ، أو « كيف ندرس » ٠

ويرى أصحاب ذلك الاتجاه أن العادة قد جرت عند بحث مشكلة الموضوعية فى العلوم الانسانية على **الخلط** بين دلالات الموضوعية ومستوياتها الامر الذى أدى الى صعوبة تحديد مشكلة الموضوعية سعيا وراء ايجاد حل لها ، خصوصا وأن الموضوعية ليست رأيا يلقيه الباحث ثم يمضى الى سائر شئونه فى البحث ، كما أنها ليست فضولا أو ترفا نظريا يزاوله الباحث فى لحظات فراغه من البحث ، بل ان الموضوعية **موقف** شامل للباحث من قضية البحث بأسرها لا تستبين عناصره الا من ثنايا فكره وعمله جميعا (٥) ٠

٦ ـ وهناك من يعتقد بأن الموضوعية هى « نوع من المسافة العقلية بين الباحث وموضوع بحثه » ، ويعتبرها ـ أى الموضوعية ـ شرطا جوهريا وأساسيا حتى يحتل العلم مكانته اللائقة به فى المجتمع المعاصر ٠

ويتزعم ذلك الاعتقاد عالم الاجتماع الامريكى « تالكوت **بارسونز** » . الذى يحذر من استسلام الباحث أو وقوعه بين شقى الرحى بالنسبة لنمطى الثقافة الكلية أو الجزئية السائدين فى مجتمع الباحث . وينصحه بالقيام **بعملية** مواءمة يتمكن عن طريقها من الفصل بين الثقافتين وعدم الاستغراق فى أيهما ، لأن ذلك الفصل هو فى رأى بارسونز دليل الموضوعية وركيزتها .

ويؤكد بارسونز على أن تلك الموضوعية حتى ولو كانت **نسبية** فانها سوف تضفى على الباحث احتراما وثقة ٠

وان كان الامر يستوجب فى رأى بارسونز أن **يلزم** الباحث نفسه بمنطق الشك العلمى والزهد ، **لأن العلم** - عند بارسونز - **مهمة مقدسة** تستحق أن يكرس لها الباحث كل حياته فى موضوعية وتجرد (*) ٠

●

ركائز الموضوعية :

تنهض الموضوعية بصفة عامة على ثلاثة **ركائز أساسية تتمثل** فى الحيدة والدقة والأمانة . وتبدو هذه **الركائز** للوهلة **الأولى** ثلاثة ٠٠ لكنها فى الواقع كل مترابط متساند لأنه لا حيدة بغير أمانة أو دقة ، وأنه لا أمانة بغير أن يأخذ الباحث نفسه بالدقة العلمية والحياد الموضوعى ، **وأنه لا دقة** بغير الامانة سواء فى البحث أو عند عرض النتائج ، **أو** بغير الحياد المنهجى ضد أو مع الظاهرة أو الوقائع المبحوثة ٠

هذه صورة من صور **التكامل** والتســـاند بين الحيدة والدقة والامانة كركائز أساسية للموضوعية ، أما الصورة الاخرى ، **فتكمن** فى العلم ذاته من خلال اصطناعه لمنهج يقود فى النهاية الى التفسير أو الى المعرفة ، **لأن** العلم أو الاشتغـال به ، فى رأى الكثيرين عمليـة **تربية تؤدى** الى تكوين بحاث صالحين ، حيث يتيح العلم الحديث الفرصـــة لتمرين **عقول** طـلابه على الدقة عند تسجيل الحقائق وتحليلها ، ويمرن العلم طلابه وباحثيه على الحيدة والامانة سواء عند تعاملهم مع الحقائق أو عند محاولتهم استخلاص

(*) للاستزادة حول اراء بارسونز فى هذه النقطة انظر :

Parsonons; T; Sociological Theory and Modern Society Evolution and Objectivity In Social Sinces; Free Press; New York, 1967, PP. 2-4.

ما بينها من علاقات ، أو عند محاولاتهم فهم مختلف الاشكال الرمزية أو القوانين التى تجمع تلك العلاقات وتربط بينها ، وكل تلك العمليات تتيح للعقل البشرى أن يستوعب المنهج العلمى ، ويتخلص من الاهواء الفردية عند تكوين الاحكام ٠

ولكن اذا ما رمنا تفسيرا لكل أو بعض تلك الركائز لتبين لنا أن :

- ١ -

الحيـــدة :

الحيدة كانت مطلبا قديما لكل العلماء على مر العصور ، فقد اعتبر كثير من مؤرخى العلم والمشتغلين بفلســـفته ، أن الحيدة تعبير مرادف للمنهج العلمى أو هى نوع من التعقل النسبى ، ويعتبرون أن الحيدة والدقة شرطان ضروريان لكل البحوث العلمية ، كما يؤكدون على أن الحيدة كفكرة لم تكن بدعة ابتدعها المشتغلون ببحوث العلم الحديث ، وانما الحيدة كفكرة مرتكزة على طرح الميول الذاتية عند أبواب المعامل العلمية ، قد نشأت بالتدريج وآمن بضرورتها العلماء والباحثون جيلا بعد جيل نتيجة للسخافات والأهواء التى طالما وقفت حجر عثرة فى سبيل تقدم العلم ٠

ويرى هؤلاء أن عدم الحيدة راجع الى سيطرة الهواة على مجال العلم الطبيعى ، فكل هاوى منهم كلما اكتشف شيئا بالغ فيه كما وكيفا ودافع عن اكتشافه فى عناد واصرار أمام منافسيه ، وتتوه الحيدة وسط مغالاة هؤلاء الهواة المتنافسين واكاذيبهم (٦) ٠

وكان لابد لصد ذلك التيار الذاتى ، من الالحاح على الحيـدة وتنمية الاحساس المهنى وتعميق اخلاقيات البحث وتحرير العلم من سيطرة الحوار الفلسفى واهواء السياسة ودروب الفصاحة والبلاغة ٠

وكانت الجمعيـات العلميـة التى احتوت العلم وأهـله ونشرت جوا اجتماعيا قرب بين المشتغلين بالعلم ، وزكت فيهم روح العلم وأخلاقياته

وجعلت كل واحد منهم قادرا مهما بلغ من الحساسية او العاطفية على كبح جماح حساسياته واحتوا- عواطفه تارة بسبب ايمانه بأخلاقيات وآداب مهنته ، وتارة بسبب ما يتهدده من خطر ان حاد عن الحقيقة أو مال متعمدا عن الصواب نظرا لكل عيون الزملاء وآذانهم المفتوحة على جهده العلمي المبذول ٠

كما لا يجب اغفال الدور المؤثر فى الحيدة والذى يتمثل فى الحماس والتجرد الناتج عن شغف الباحثين حبا فى الحقيقة وسعيهم بغير كلل للوصول اليها ، حيث يعتبر « حب الحقيقة » فى رأى الكثيرين هو أكبر عاصم من الزلل وأهم عامل من عوامل الحيدة ٠

هذا وللحيدة مقومات اساسية ، او هى تسير وفق خطوات منهجيه تتداعى الواحدة منها تلو الآخر فى منطقية وتتابع . وتتمثل تلك المقومات فى التفكير الشجاع الامين ، ثم الخروج بنتائج ، واعلانها فى شجاعة واصرار (٧) ٠

- ٢ -

الامانة :

ذاتية الباحث هى معيار أمانته ، بمعنى ٠٠ أن أطلق الباحث لذاتيته العنان خلال خطوات بحثه بدءا من اختياره لموضوع البحث ، حتى اعداده للتقرير النهائى له ، لجاءت كل معلوماته مصطبغة بأهوائه ورغباته هو ، أما ان أحسن الباحث اخراج ذاتياته من الموضوع لاتسم بحثه بالموضوعية وجاءت بياناته مفسرة للحقائق كما هى فى الواقع لا كما هى فى خيال الباحث أو فى وجدانه ٠

ولعدم الأمانة العلمية عدة صور واشكال ٠٠ كما لها عدة مسببات واهداف شعورية أو لاشعورية ، وكلها توصم بالغش وعدم الصدق ، وتؤثر كثيرا على تقدم البحث العلمى وموضوعيته لاسيما فى مجال العلوم الاجتماعية والانسانية ٠

- ٣ -

الدقـــة :

والدقة هنا ·· تعنى حرص الباحث على اتباع المنهج العلمى أثناء بحثه عن الحقيقة ، بمعنى أن يكون سعيه نحو **المعرفة** مجردا وواعيا بمختلف العوامل المحيطة بالظاهرة المبحوثة ، سواء وهو يعبر عنها أو عند استخلاصه للحقائق المفسرة لها ، لأن أى انحراف سواء أثنـاء البحث أو عنـد عرض البيانات وتحليلها وتفسيرها ، نقول أن أى **انحراف** عن الحقيقة سـتكون له نتائج ضـارة سواء على الظـاهرة المبحوثة أو على غيرها من الظواهر المتصلة بها أو المتساندة معها ، صحيح أن ذلك الانحراف قد يكون اكتشافه أمرا أكثر سهولة فى العلوم الطبيعية والحيوية عنها فى العلوم الانسـانيّة ، لكنه سوف يبقى عقبة كأداء فى سبيل تقدم العلم ·· والعلم فى المجـالات الاجتماعية والانسانية بالذات ·

●

عناصر الموضوعية :

تتمثل عناصر الموضـوعية فى العوامل **المحورية** التى تنهض عليهـا عملية البحث العلمى ، ونعنى بها ·· الظاهرة أو الموضوع المبحوث ، والباحث الذى يقوم بعملية البحث ، وانهج المستخـدم فى البحث فضـلا عن طبيعة المعرفة المتحصل عليها ·

مرة أخرى تتمثل تلك العناصر ·· فى الحقيقة ·· وباحث عن الحقيقة وطريق مؤدى الى الحقيقة ·· !!

وسنحاول أن نلقى بعض الضوء على كل من تلك العناصر على النحو الآتى :

- ١ -

الظاهرة او الموضوع المبحوث :

لعل دوركايم يعتبر أول من نادى بموضوعية الظاهرة المبحوثة من خلال معارضته للنزعة الذاتية فى التفسير التى كانت سائدة فى عصره ، حيث

طالب بألا يرتكز تفسير الظواهر الاجتماعية على ضوء رغبات الباحث وحالاته النفسية الشعورية ، وانما يجب أن تفسر تلك الظواهر على اعتبار أن لها طبيعة موضوعية ، أو على حد تعبير دوركايم نفسه « اننا يجب أن نعالج الظواهر الاجتماعية على اعتبار أنها أشياء » ٠٠ (٨) (*) ٠

و « شيئية » الظواهر الاجتماعية باعتبارها كيانات أو حقائق اجتماعية مستقلة ترتكز على أربعة مقومات حددها دوركايم فى التلقائية ، الجبرية ، العمومية ، والخارجية ٠

والتلقائية هنا تعنى ٠٠ أن الظواهر الاجتماعية لا تدين بوجودها لفرد حيث أنها موجودة فعلا قبل أن يوجد الافراد ، أما **الجبرية** ٠٠ فتعنى أن تلك الظواهر ملزمة لكل من الفرد والجماعة على حد سواء وأن الخروج عليها يقابل بعقاب من المجتمع ، أما **العمومية** ، فيقصد بها أن تلك الظواهر لا يقتصر وجودها على مكان دون آخر ، لأن الظواهر كحقائق عامة تفقد خاصيتها أن أقتصر وجودها على مكان ما دون سواه ، أما **الخارجية** كمقوم رابع وأخير فتعنى أن الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الافراد ، وبحيث يمكن ملاحظتها « كأشياء » منفصلة عن الحياة الفردية ٠

وبناءا على تلك المقومات الاربعة يمكن - فى رأى دوركايم - دراسة الظواهر أو الوقائع أو الحقائق الاجتماعية دراسة موضوعية خاصة اذا ما اعتمدت تلك الدراسة على المنهج الاحصائى (٩) ٠

وعلى كل الاحوال فان الظاهرة أو الموضوع المبحوث ، أو مشكلة البحث - فى لغة علماء المنهجية - تشكل من حيث الاختيار عاملا **محوريا** فى

(*) لم يقصر دوركايم فهمه للشيئية على النواحى المادية فقط ، حيث ينسحب مفهوم الشيئية كذلك على الافكار ، للاستزادة انظر :

دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع « الماهية والموضوع والمنهج » - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٢ ص ص ٧٥ - ٨٢ ٠

موضوعية أو عدم موضوعية المعلومات أو الحقائق أو المعرفة الناتجة عنها وعليه لابد أن يكون الموضوع المبحوث واضحا فى ذهن الباحث تماما ونابعا عن قناعته واختياره أو رغبته فى البحث فيه على الأقل ، والقناعة هنا تنصب على الموضوع ككل من حيث **الشكل** والمضمون ٠٠ والشكل هنا ينصب على مختلف الاجراءات المنهجية اللازمة للبحث ، أما **المضمون** فيعنى غايات البحث وأهدافه والقيم التى ينطوى عليها الموضوع المبحوث فضلا عن مختلف العلاقات المتآلفة والمتنافرة التى تقربه أو تبعده عن مختلف الموضوعات البحثية أو الظواهر الاخرى المبحوثة ٠

وعلاوة على وضوح الموضوع المدروس وقناعة الباحث به ، يجب أن يكون الموضوع المبحوث فى نطاق ما يسمى **بتمكن** الباحث « ونطاق التمكن هنا يعنى قدرات الباحث ومهاراته فضلا عن مختلف الامكانيات ـ المادية والفنية والبشرية ـ المتوافرة لديه ، علاوة على الوقت الذى عليه أن ينتهى خلاله من بحثه ٠٠ كما يلعب التخصص دورا مهما ٠٠ ليس فقط بالنسبة لتدعيم قدرة الباحث على دراسة موضوع بحثه ، وانما حتى تكون هناك قيمة علمية لما سوف تسفر عنه دراسته من نتائج أو معارف ٠

وعلى كل حال ٠٠ فان الظاهرة أو الموضوع المبحوث ، يجب حصره فى مشكلة محددة ومصاغة بطريقة واضحة ، فاذا كنا مثلا بصدد دراسة موضوع « الهجرة » فانه من الزم الضروريات أن نحدد ما يسمى بنطاق المشكلة ، فلا نكتفى بالقول أننا سندرس « للهجرة » وانما يجب أن نحدد هل سندرس الهجرة الداخلية « أى داخل نطاق المجتمع الواحد » من القرية للمدينة مثلا » أو الهجرة الخارجية « أى من الجزائر مثلا الى فرنسا أو من مصر الى أى دولة عربية وبالعكس » ، مع توضيح دقيق لطبيعة العلاقات التى يحتمل أن تكشف عنها الدراسة العلمية للظاهرة أو للمشكلة المطروحة ٠

- ٢ -

الباحث الذى سيدرس المشكلة :

تلعب العوامل الذاتية دورا مؤثرا لدى الباحثين اثناء تعاملهم مع

الظواهر أو المشكلات أو الموضوعات المطروحة للبحث ، ولو أخذنا ٠٠ كيفية اختيار الموضوع المبحوث على سبيل المثال ٠٠ لاتضح لنا ٠٠ أن **الخلفية** المرجعية للباحث والمتمثلة فى خبراته السابقة وتخصصه وقيمه واتجاهاته العلمية ، هى التى تشكل **اختيار** الباحث لمشكلة بحثه أو تحدد على **الأقل** نطاق مساهمته فيها ، لذلك فمن الامور الصعبة أن تكون هناك قواعد ثابتة تحدد أسس اختيار الباحث لموضوع بحثه ، لكن يمكن أن تكون هناك بعض **المحكات** التى يمكن أن يتقيد بها كمؤشر على موضوعية الباحث عند اختياره لموضوع بحثه ٠٠ منها الاهداف الظاهرة أو الكامنة وراء اختيار موضوع البحث ، ومنها مدى قرب الموضوع المبحوث أو بعده من فلسفة المجتمع وسياسته أو **أيديولوجيته** ، ومنها مراعاة البحث لمختلف قواعد المنهجية وأسسها ، ومنها طبيعة تمويل البحث والجهة المشرفة عليه ، ومنها كذلك مختلف الامكانيات المادية والفنية المتاحة للبحث ٠

ولا يقف **تأثير** الباحث عند حد اختياره لمشكلة بحثه فقط ، وانما تمتد لتشمل مختلف مراحل بحثه ، بدءا من وضعه للفروض أو للتصورات التى تنهض عليها مشكلة بحثه أو التى تفسرها ، الى أن يجمع بياناته ويتعامل معها من خلال الجدولة والتبويب والتحليل والتفسير ، ثم أثناء استخلاصه للنتائج ووصولا الى الحقائق التى يسعى للتعرف عليها ، لأن **ذاتية** الباحث يمكن أن توجهه شعوريا أو لا شعوريا أثناء أى من تلك المراحل ٠٠ وجهة مضللة ٠

لذلك فقد قدمت أفكار عديدة ٠٠ استهدفت كلها تزويد الباحثين بمجموعة من النصائح الغرض منها ضمان **موضوعيتهم** خلال مختلف مراحل البحث ، ولعل من أقدم تلك الافكار وأبرزها ما قدمه دركايم فى هذا المجال حيث زود الباحثين الاجتماعيين بعدة نصائح أو قواعد عند تعاملهم مع الظواهر المبحوثة بغرض ضمان حيدتهم وبالتالى موضوعيتهم ، نوجز أهمها

فيما يأتى (١) :

١ - أنه على الباحث الاجتماعى أن يتحرر من أفكاره السابقة عن الظاهرة التى يتناولها بالدراسة والبحث ، وعليه ايضا ألا يتأثر بمشاعره الخاصة أو بتجربته الشخصية عند تعامله مع الظاهرة المبحوثة ٠

٢ - على الباحث الاجتماعى أن يتعامل مع الظواهر الاجتماعية باعتبارها ذات كيان مستقل عن شعوره الداخلى ، وأن يعالجها معالجة وضعية باعتبارها - أى الظواهر - مادة للتجربة والملاحظة العلمية ، أو باعتبارها ذات شخصية علمية مستقلة ٠

٣ - على الباحث أن يبدأ بحثه بتحديد الظواهر المبحوثة وتعريفها بدقة ، ولن يتيسر للباحث ذلك الا اذا عمل على تصنيف الظواهر الاجتماعية محل الدراسة الى طوائف متجانسة لأن ذلك سوف يمكن الباحث من تحديد الخواص والخصائص المشتركة بين مختلف الظواهر موضوع البحث من جهة ، وسوف يمكن الباحث من جهة أخرى من التعرف على مختلف العناصر والاسباب التى تفسر وجود الظاهرة وتوضح طبيعتها وأشكالها المتعددة ٠

٤ - على الباحث السوسيولوجى أن يبذل قصارى جهده أثناء ملاحظته للظواهر الاجتماعية محل الدراسة للتعرف على الحالات التى تبدو فيها الظاهرة مستقلة عن صورتها الفردية ٠٠ بمعنى أن يهتم الباحث بعمومية الظاهرة ٠٠ وألا يقع فريسة لبعض الحالات الفردية التى قد تتجسد فيها الظاهرة ، لأن جهد الباحث فى الكشف عن الظواهر الاجتماعية وهى مجردة من الصورة الفردية يمثل الضمان للكشف عن طبيعة الظاهرة والوقوف على حقيقة أمرها ٠

وعلى كل فان كثيرا مما ذكره دوركايم كان ولا يزال صحيحا ومحل اعتبار حتى اليوم ولو أننا يجب أن نضيف اليه ، أن موضوعية الباحث أثناء تناوله للظاهرة المبحوثة تتوقف أيضا على عدة أمور من أهمها :

(أ) ما يتمتع به الباحث من قدرات ومهارات خاصة ، وهذه كلها تكتسب بطول المران ، علاوة على سعة اطلاع الباحث سواء على المعلومات

النظرية أو على الحقائق التى تولدت عن بحوث ميدانية أخرى حول المشكلة المبحوثة أو قريبا منها ٠

(ب) ما يتجمع حول الباحث من **مستشارين** وخبراء ، لأن وجود مثل هؤلاء يشكل نوعا من الأمان العلمى للباحث خاصة لو كان مبتدئا ، لأن استشارتهم أو الرجوع اليهم عند الحاجة يمثل عاصما يعتد به من شطط الباحث أو انحرافه نتيجة سيطرة بعض المؤثرات غير الموضوعية عليه ٠

(ج) عمل الباحث منفردا أو ضمن فريق ، لأن قيام الباحث بعمله البحثى **منفردا** يزيد من صعوبة مهمته خصوصا اذا ما كان مبتدئا ، بعكس عمله ضمن فريق بحث متكامل ٠٠ لأن العمل ضمن فريق يوفر للباحث جوا علميا ومناقشات لكل ما يحيط بالبحث ، ويجعل الجميع يفكرون بصوت عال مما لا يدع مجالا لتسلط الآراء الذاتية أو الفردية ٠

- ٣ -

المنهج المستخدم فى البحث :

والمنهج المستخدم فى البحث يشكل هو الآخر العنصر المحورى الثالث للموضوعية ، ولا يرجع ذلك لأن منهج البحث المستخدم هو الذى يحدد فقط نوع الأدوات اللازمة لجمع البيانات حول الظاهرة المبحوثة ، وانما لأن نجاح البحث فى تحقيق غاياته يتوقف بصفة أساسية على **الاختيار** الموضوعى أو الرشيد للوسائل والادوات اللازمة لجمع البيانات ، وعلى الباحث فى سبيل ذلك أن يبذل غاية الجهد حتى تكون أدواته فى جمع البيانات على أكبر قدر ممكن من الكفاءة ، حتى يمكن أن تنبثق من خلالها الثقة فى البيانات المجموعة عن طريقها ٠

وموضوعية **المنهج** المستخدم تتطلب ضرورة استيفاء عدة ضمانات أساسية منها :

(أ) هل المنهج المستخدم هو فعلا الأكثر ملائمة مع طبيعة المشكلة

المطروحة من جهة ومع نوعية البيانات والمعلومات المتوقع الحصول عليها من جهة أخرى ٠٠ أم لا ؟ !

(ب) هل الادوات المستخدمة فى جمع المعلومات والبيانات سوف توفر لها - أى للبيانات - نوعا من الثبات ؟ !

بمعنى ٠٠ أن الباحث لو اعتمد على استمارة ما فى الحصول على بيانات معينة ٠٠ من عينة محتارة مثلا ٠٠ هل يمكن له لو اعاد استخدام نفس الاستمارة على نفس العينة بعد فترة زمنية محددة ، أن يحصل على نفس المعلومات ٠٠ أم لا ؟ ! ٠٠ لأنه لو حصل على نفس المعلومات ولو بمعدل انحراف بسيط تكون أداته موضوعية أما اذا حدث تغير جوهرى فى البيانات المجموعة تكون النتيجة أن تلك الأداة لم تصمم بشكل جيد ٠٠ وبالتالى تكون غير موضوعية ٠

(ج) هل الادوات المستخدمة فى جمع المعلومات صادقة أم لا ؟ ! ، بمعنى ٠٠ هل ما توافر تحت يد الباحث من بيانات نتيجة لاستخدامه وسيلة أو أداة فى اطار منهج ما ٠٠ هل هذه البيانات صادقة فى تعبيرها عن الحقيقة الموضوعية أم لا ؟ !

وصدق المنهج المستخدم فى التعبير عن الحقيقة الموضوعية نابع من قدرة الأدوات المستخدمة على قياس الظاهرة المبحوثة بالفعل ، لأن كثيراً من الباحثين يستخدمون مناهج ووسائل وأدوات هى فى حد ذاتها قد تكون جيدة أو مصممة بطريقة جيدة ، لكنها ليست صالحة أو بتعبير ادق ليست هى الاكثر صلاحية ومناسبة مع الظاهرة المبحوثة ٠

(د) الاعتماد كلما كان ذلك ممكنا على المناهج الكمية والاحصائية لأن ذلك الاعتماد ليس فقط دليلا على علمية العلوم الاجتماعية ، وانما هو أيضا سبيلها الى الصدق والثبات اللذين تحدثنا عنهما قبلا ؛ هذا بالاضافة الى أن القياس الكمى قادر الى حد كبير على أن يمكن العلوم الاجتماعية من أن تقدم وصفا وتحليلا أكثر دقة للظواهر أو للمشكلات موضوع الدراسة ٠

هذا وقد سبق لأصحاب الاتجاه الوضعى الحديث أن نادوا بضرورة الاعتماد المطلق على العد والقياس اذا ما أريد لعلم الاجتماع بالذات أن يكون قادرا على التفسير والتنبؤ من خلال ما تتيحه الاساليب الرياضية فضلا عن تقدم التكنولوجيا لعلم الاجتماع من اقصى معدلات الصدق والثبات ، ولاشك أن استخدام المناهج الكمية والاحصائية شيء بالغ الحيوية بالنسبة لتقدم العلوم الاجتماعية وموضوعيتها وبحيث يصبح استخدامها **ضرورة تفرضها** المنهجية ما دام ذلك ممكنا ، مع عدم الافراط فى الثقة فى معطيات هذه المناهج لما تتسم به الحقائق فى العلوم الاجتماعية ذاتها من عدم الثبات لأن التغير هو سمة الظواهر المجتمعية جميعا .

- ٤ -

طبيعة المعرفة المتحصل عليها :

لاشك أن المعرفة هى الهدف النهائى لكل العلوم الاجتماعية ، ونحن عندما نقول المعرفة انما نقصد المعرفة **المنظمة** أو المعرفة العلمية القادرة على التفسير ومن ثم على التنبؤ .

لكن كيف يمكن للمعرفة فى العلوم الاجتماعية أن تؤدى دورها فى التفسير من جهة ، وأن تصبح قادرة على التنبؤ من جهة أخرى ؟!

ولعل **الاجابة** على هذا السؤال ترتبط بمدى علمية العلوم الاجتماعية ، وترتبط أكثر بالطريقة المنهجية التى **تسلكها** العلوم الاجتماعية وصولا الى التفسير ثم التنبؤ ، والمنهج العلمى هو الآخر له متطلبات وله أطر يجب أن يراعيها أو يسير وفقا لها ان أرادت العلوم الاجتماعية أن تحقق تقدما مشابها للتقدم الذى أحرزته العلوم الطبيعية والحيوية مع عدم اغفال الصعوبة المتعلقة بامكان التجريب فى العديد من العلوم الاجتماعية .

وعلى كل حال حتى يمكن وصف المعارف المتحصل عليها من خلال العلوم الاجتماعية بالعلمية أو بالموضوعية يجب أن يراعى فيها :

(ا) ان تهتم العلوم الاجتماعية بدراسة الوقائع التى يمكن اختبارها امبيريقيا أو على الاقل يمكن الاستدلال عليها بشواهد امبيريقية ٠

(ب) وحتى تكون الوقائع ممكنة امبيريقيا يجب أن تكون بعيدة عن الاحكام الاخلاقية أو القيمية أو العقائدية ٠

(ج) التزام الموضوعية بشكل تام ، سواء عند دراسة الوقائع والظواهر المجتمعية أو سواء عند تفسيرها ، وبحيث لا تكون هناك تعميمات أو تنبؤات مبنية على استنتاجات تخرج عن اطار الظواهر وحدودها الواقعية أى الملموسة ٠

(د) أن يتم الوصف الدقيق لمختلف الخصائص المتعلقة بالظاهرة المبحوثة وتحليلها فى اطار من علاقاتها التساندية بغيرها من الظواهر المجتمعية ، وان يكون الوصف والتحليل بهدف الوصول الى نوع من الحقائق أو المبادىء العامة ٠

ولكن كيف يمكن قيام تلك المعرفة العلمية بالنسبة للعلوم الاجتماعيه ، خصوصا وأن التجريب أو الملاحظة المعملية أمر صعب المنال بالنسبة لعدد من العلوم الاجتماعية ، وأمر هو المستحيل ذاته للبعض الآخر - كالتاريخ مثلا - ، خصوصا فى ظل الاعتقاد السائد بانه لا علمية بغير تجريب ولا تجريب خارج المعامل ؟ !

وقبل ان نجيب على هذا السؤال ٠٠ نقول ان عددا غير قليل من علماء العلوم الاجتماعية ومفكريها قد اثاروا العديد من الاعتراضات على امكانيه التجريب فى العلوم الاجتماعية باعتبار ان للظواهر المجتمعية ظواهر تتسم بالتعقيد والتداخل ، فضلا عن ولع وحدات التحليل بها سواء اكانت افرادا أو مجتمعات أو جماعات أو ثقافات على التغير والتجديد المستمرين ٠

وهذه الاعتراضات لا تقلل من قناعتنا بعلمية العلوم الاجتماعية بل وبامكانية التجريب فيها بدليل التقدم الذى احرزته علوم النفس والاقتصاد والسكان والجريمة فى هذا المجال ٠٠ لكن ٠٠ الامر يستلزم جهدا مضاعفا من الباحثين فى مجال العلوم الاجتماعية ، كما يستلزم تطويرا مستمرا فى

المناهج والادوات المستخدمة للوصول الى الحقيقة . بل والى التنبؤ ايضا.. ويتمثل ذلك الجهد المضاعف فى التقييم المستمر للمناهج المستخدمة ومحاولة تطويرها باستمرار وابتكار أشكال تكاملية لها يمكن عن طريقها مواجهة تداخل وتعقيد وتبدل الظواهر المجتمعية ، مع الاستعانة بمنهج البحث التاريخى ليقدم لنا تفسيرا لبعض الملامح الفريدة أو المميزة التى قد تطفو على السطح عند دراسة ظاهرة أو موقف ما (*) .

نعود للاجابة على السؤال الذى لا زال مطروحا ، لنقول أن المعرفة العلمية تنهض على منهج علمى فى التفكير والبحث ، ولقد حدد بوتومور مثلا ما يمكن أن يحققه علم الاجتماع - وهو أحد العلوم الاجتماعية - من خلال اتباعه لقواعد المنهج العلمى فهو يرى أن :

(أ) عالم الاجتماع فى مقدوره أن يحصل على معلومات منظمة وواقعية تمكنه من أن تكون له - أى لعالم الاجتماع - أحكام منطقية حول الوقائع أو الظواهر المبحوثة ، وذلك من خلال اعتماده على المسائل ذات الطابع العملى بدلا من تلك التى ترتكز على افكار تقليدية أو غير امبيريقية .

(ب) عالم الاجتماع يمكنه من خلال استخدام المنهج الصحيح أن يصل فى بعض الأحيان ليس فقط الى التفسير الصحيح وانما الى تنبؤات صادقة أيضا ، وذلك خلال دراسته الواقعية المنظمة ، حتى فى الحالات التى لايمكن فيها التجريب أو تلك التى يتعذر على الباحث فيها تفسير الظواهر تفسيرا سببيا عليا .

(ج) عالم الاجتماع لديه القدرة من خلال استخدامه للمناهج الملائمة على أن يصل الى ترتيب قضاياه ترتيبا منطقيا على حسب درجة عموميتها ، الامر الذى يتيح له فى النهاية اقامة نظريات علمية (١١) .

(*) يرى سوروكين امكانية الاستعانة بالقياس والاحصاء فى العلوم الاجتماعية ، ولكن ليس من منطلق الهوس الرياضى تقليدا للعلوم الطبيعية ، ولكن من خلال اصطناع منهج متعدد الجوانب يرتكز على الملاحظة والمنطق العقلى علاوة على الحدس الذى يعتبره ضروريا لجميع المشتغلين بالعلم طبيعيا كان او انسانيا .

والعلوم الاجتماعية يمكنها جميعا بطبيعة الحال أن يكون لها نفس موقف علم الاجتماع كما حدده بوتومور ، كما أن لدوركايم رأى فيما يخص الكيفية التى تمكننا من الدراسة الصحيحة للظاهرة المبحوثة ، وحدد ذلك من خلال الخطوات الثلاث الرئيسية الاتية (١٢) :

(أ) ضرورة تحليل مكونات الظاهرة المبحوثة ، مع دراسة مختلف أشكالها وكيف نشأت ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لفهم طبيعتها مع عدم الاقتصار على الحاضر أثناء دراسة الظاهرة بل يجب الرجوع الى الماضى والربط بينه وبين الحاضر .

(ب) التعرف على الوظيفة التى تؤديها الظاهرة الاجتماعية المبحوثة خلال مراحل تطورها المختلفة مع دراسة علاقاتها بغيرها من الظواهر الاجتماعية سواء المشابهة أو غير المشابهة ، مع الاستعانة فى ذلك كله بمنطق المقارنة.

(ج) لابد من تجريد القوانين التى تسير الظواهر الاجتماعية ، مع صياغة تلك القوانين صياغة دقيقة باعتبار أن الهدف النهائى للدراسة هو الوصول الى القوانين فى صورة كمية او كيفية ، مع الاخذ فى الاعتبار أن القوانين ذات الصورة الكمية هى التى تعبر عن الظاهرة رقميا ، اما تلك القوانين ذات الصورة الكيفية هى تلك القوانين التى تبرز الخواص والصفات العامة للظاهرة المبحوثة الى جانب توضيح مختلف مكوناتها وعلاقاتها المتبادلة بغيرها من الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية .

وختاما للحديث حول الموضوعية كمقوم أساسى وهام من مقومات المنهجية فى العلوم الاجتماعية ، نقول أن الموضوعية كانت ولا زالت الشاغل الاساسى الكثير من العلماء والباحثين ، ولا زال كل منهم يبدى رأيه فى العديد من الموضوعات التى تعرضنا لها وان اختلفت مسمياتها عند بعضهم ، ولو أن الهدف دائما واحد هو محاولة اثبات وتأكيد علمية العلوم الانسانية والاجتماعية .

***

المصـــادر والتعليقـــات

(١) أنظر : Gibson, Q., The Logic of Enquiry, Routlege & Kegan Poul, London, 1960, P. 77.

فى دكتور صلاح قنصوه ـ الموضوعية فى العلوم الانسانية ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ ـ ص ٥٩ ٠

(٢) أنظر : دكتور يحيى هويدى ـ مقدمة فى الفلسفة العامة ـ دار النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ ـ ص ٣٦ ٠

(٣) للاستزادة أنظر :
دكتور فتحى الشنيطى ـ أسس المنطق والمنهج العلمى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ ١٩٧٠ ـ ص‌ص ١٧١ ـ ١٧٢ ٠

(٤) للاستزادة أنظر :
دكتور توفيق الطويل ـ أسس الفلسفة ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ ـ ص‌ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ٠

(٥) للاستزادة أنظر :
دكتور صلاح قنصوه ـ الموضوعيـة فى العلوم الانسـانية ـ مرجـع سابق ـ ص‌ص ٦٢ ـ ٦٦ ٠

(٦) للاستزادة أنظر :
James B. Conant, Science and Commonsense, Yale University Press, Compyright, 1951.

(٧) للاستزادة أنظر المرجع السابق ٠

(٨) دكتور صلاح الفوال ـ معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ ـ ص ٨٤ ٠

(٩) المرجع السابق ص ٨٥ ٠

(١٠) المرجع السابق صص ٩٤ ـ ٩٥ ٠

(١١) انظر المرجع السابق صص ٨٩ ـ ٩١ لتأخذ فكرة عن امكانية قيام النظريات فى علم الاجتماع ومنها على سبيل المثال نظرية دوركايم فى الانتحار ٠

(١٢) نفس المرجع السابق ص ٩٥ ٠

***